على طريق الأصالة

(٢٣)

تجاوزات العلوم الاجتماعية والإنسانية

لمفهوم الفطرة والعلم

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

تجاوزات العلوم الاجتماعية والإنسانية

لمفهوم الفطرة والعلم

إن نظرية العلوم الاجتماعية التى تتضمنها المناهج الدراسية الحديثة نظرية مغلوطة وناقصة وقائمة على المفهوم المادى الذى لا يؤمن بالأديان المنزلة ولا بالقيم الأخلاقية المرتبطة بالدين وفى ظل هذا المفهوم فإن علم الاجتماع لايزيد عن أن يكون علماً وظيفياً تقريراً يدرس شئون الحياة الاجتماعية دراسة تحليلية للوصول إلى القوانين الاجتماعية التى تخضع لها الظواهر.

وهى تقوم فى مجموعها على مفهوم زائف وباطل هو أن البيئة هى التى تخلق تراثها وهى التى يرجع إليها الفضل فى تنشئة الفرد وتوجيهه والإشراف على سلوكه.

ومعنى هذا إنكار الدور الذى يقوم به الدين فى تكوين الأفراد وتجاهل وجود الدين كلية أواعتباره قد خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها على حد تعبير دوركايم والواقع أن علم الاجتماع فى

مهمته الحقيقية هو دراسة مشاكل المجتمع ووضع الحلول لها - وهذا هو ما تنكرت له مدرسة العلوم الاجتماعية كما تنكرت له نظريات علم النفس أيضاً .

ولما كانت هذه المناهج في حقيقتها محاولة لإحلال مفاهيم قائمة على الفلسفة المادية فإنها قد عمدت إلى مقاومة كل ما عمدت الأديان المنزلة على إقراره وإقامة دعائمه .

وقد عمد دوركايم (بوضعه أبرز منظرى علم الاجتماع) إلى إقامة منهج التشكيك فى القيم والمثل والعقائد والأخلاق من منطلق مفهوم قوامه أن كل الظواهر نسبية متغيرة متبدلة ، لا تثبت على حال ولا تستقر على وضع لأنها فى كل يوم يتبدل الحال بحال (وهذه قاعدة مضطردة فى كل مجالات دراسات الاجتماع والنفس والأخلاق وتاريخ الأديان) وهم يستخدمون هذا المنهج لإفساد المجتمعات وتحللها أخلاقياً ودينياً بهدف أن يكون المجتمع مشاكل مليئاً بالفتن .

ولكى يكون هذا الهدف واضحاً فإننا نعلم أن هذه الجماعة (دوركايم وليفى بريل وفرويد وماركس) يعملون فى خدمة هدف واضح كشفت عنه الماسونية والبروتوكولات وهو هدم المجتمع الإنسانى وتحطيم مقوماته الخلقية والاجتماعية وذلك كمقدمة

٥

لإحتوائه والسيطرة عليه فى خدمة هدف إقامة إمبراطورية الربا العالمية .

ولا ريب أن كل هذه المقررات التى يعملون على تثبيتها هى مجموعة من الأهواء البشرية التى تتعارض تماما مع فطرة الله التى فطر الناس عليها ومع مقررات العلم .

(أولا) وفى مقدمة ذلك نظرية النسبية التى تحاول أن تسيطر بدعوى أن كل الظواهر نسبية متغيرة متبدلة لا تثبت على حال ولا تستقر على وضع لأنها فى كل يوم تتبدل .

والسؤال هو : هل إذا كانت الأخلاق نسبية فهل سيأتى الزمن الذى نعتقد فيه أن الصدق رذيلة أو أن الشهامة شر أو أن الشجاعة سوء أو أن العفة جريمة .

وفى مجال العقائد هل سيأتى اليوم الذى لانقول فيه بوحدانية الله أو لا نقول بإرادته وعلمه .

(ثانياً) دعوة دور كايم إلى الجبرية الكاملة للفرد فى إطار المجتمع وقوله أن العامل الفعال الذى يؤثر فى المجتمع هو البيئة الاجتماعية هذه الدعوة مضللة كاذبة ، لأنها إلغاء كامل لدور الفرد الذى يقرر الإسلام له وجوده ومسئوليته وإلتزامه الإسلامى والذى بناء عليه يكون الجزاء والثواب والعقاب .

والإسلام يقرر أن المسئولية فردية ، ومن هنا فإن الدعوة إلى ما يسمى مسئولية المجتمع هى محاولة خادعة لإعطاء الإنسان الحرية المطلقة فى اقتراف الإباحيات والآثام دون الخوف من العقاب .

والإسلام يرفض ما يراه دوركايم من أن الفرد لا قيمة له ولا معنى للتشبث بالحرية الفردية وأن القيم كلها للمجتمع الذى يخلق الأديان والعقائد والقيم الروحية .

فهذه النظرية مرفوضة تماماً لأنها لا تقوم على أساس علمى صحيح وأن إنكار مسئولية الفرد ودوره فى سبيل الكسب والسعى لا يعتد بها وأن تحميل الظاهرة الاجتماعية كل النتائج كل هذا من شأنه أن يتعارض تماما مع مفهوم الدين الحق

ثالثاً : يتبع هذا مجموعة من الأخطاء :

(١) تفسير الإنسان وفق مذهب المادة وعالم الحيوان فى مواجهة تكريم الإسلام للإنسان) .

(٢) فكرة التطور المطلق التى يرفضها الإسلام الذى يقوم مفهومه على إطار من الثوابت وفى داخله حركة المتغيرات

(٣) تجاهل الإرادة البشرية والمسئولية الفردية والجزاء الأخروى التى هى قاعدة أساسية فى نظرية المعرفة الإسلامية .

(٤) محاولة تصور المجتمع بصورة الصراع الدائم. وإقامة المتناقضات أساساً له بينما يقوم مفهوم الاجماع الإسلامى على إلتقاء العناصر والأجزاء فى كل متكامل دون صراع بينها أو جبرية.

(٥) التنكر للتكامل بين المادة والروح بينما يقوم المنهج الربانى على هذا الترابط مع الإيمان بأن الدين فطرة والأسرة فطرة حيث يتجاهل دور كايم الدين والأسرة ولا يراهما من الفطرة ويرى أن الجرعة هى القطرة.

(٦) محاولة جعل العقل بمثابة الإله المعبود بينما يعطى الإسلام العقل وضعه الطبيعى من حيث هو مصدر المسئولية الفردية، مع الإيمان بحاجة العقل إلى ضوء يهديه يستمده من (الوحى).

(٧) الدعوة إلى الممارسة الحرة التى لا تخضع لمبدأ ولقانون وهى التى ذاعت فى الغرب تحت عناوين الجنس والإنطلاق وهى محاولة تؤدى إلى الاعتداء على حق الغير مما أدى إلى تدهور الأخلاق تدهوراً فظيعاً.

هذا ما يرفضه الإسلام تماما لضوابطه وحدوده التى قررها لإقرار العلاقات بين الرجل والمرأة والآباء والأبناء.

• • •

هذه المفاهيم التى أوردتها الفلسفة المادية وأقامت عليها العلوم الاجتماعية والتى تقدم لشبابنا وأبنائنا فى مناهج دراسية وثقافية وكتب ومؤلفات بوصفها علوما ، هى فى الحقيقة ليست إلا نظريات قدمها عقل بشرى ، وهى فى نفس الوقت فروض قابلة للخطأ والصواب وهى ثالثا بمثابة ردود أفعال فى بيئات وعصور مختلفة ، ترتبط معها بأوضاعها ، ومن ثم فهى لا تصلح لأن تكون علوما عالمية ولا أن تكون قوانين علمية صحيحة صالحة للتطبيق على مستوى الأمم الأخرى والشعوب خاصة الأمة الإسلامية التى سابقتها وأرضيتها ونظامها وعقيدتها التى شكلت وجودها منذ أربعة عشر قرناً .

ومن هنا فقد تقرر منذ وقت طويل أنه لايمكن أن يؤخذ من الغرب ما يسمى بالعلوم (اجتماعية وأخلاقية ونفسية وتربوية على أنها التطبيق الوحيد ، وإنما تؤخذ على أنها وجهات نظر وتجارب عامة وأن ما تأخذه منها هو التنظيمات لا النظم وما تأخذه هو بمثابة مواد خام نشكلها فى دائرة مفهومنا الإسلامى للعلم .

ومن هنا فنحن مطالبون بإعادة النظر فى موقف الإسلام من هذه العلوم الغربية وهذه الفلسفات جملة وأن لا تقبل مصادرها المادية أو الوثنية المستمدة من الفلسفات اليونانية أو العلمانية المنكرة لمفهوم الغيب أو ما وراء المادة .

وقد دعا الأبرار من رجال اليقظة الإسلامية إلى ذلك منذ وقت بعيد

وقال محمـــد إقبال : يجب أن نكون مؤمنين بأنفسنا كافرين بالافرنج فالكفر بقداسة الغرب وإنكار كونه معيار الصدق والصلاح هو الخطوة الأولى والخطوة الوحيدة التي توصلنا إلى تجديد العلوم والآداب . فبعد تجديد الإيمان بصدق فكرنا الإسلامي وصلاحية شريعتنا الإسلامية الغراء ، والكفر بالفكر الغربي العلماني والفكر الشيوعي الإلحادي نتمكن من إحياء المناهل الإسلامية التي تبدو وكأنها جفت وذبلت بعد سيطرة الغرب الحضارية والفكرية والعلمية ، فبعد أن أحيينا هذه المناهل تصبح علومنا الإسلامية وآدابنا ذات حيوية ومغالية وننطلق من حيث وقفت وجفت . إن واجبنا نحن المسلمون هو أن نراقب تطور الفكر البشري بكل يقظة وانتباه ونحتفظ بوجهة نظر حرة انتقادية تجاه هذا التطور ، .

ويجب أن لا يقف الأمر عند العلوم الإنسانية والاجتماعية بل يمتد إلى العـــلوم الطبيعية والتطبيقية من الكيمياء وعلم الحيوان وعلم النبات والفلكيات وعلم طبقات الأرض والهندسة والطب وما إليها من العلوم التجريبية فإن البعض يظن أن هذه العلوم لا صلة لها بالدين ولا بالعقيدة ولكن إلقاء أي نظرة إلى المقررات الدراسية والجامعية تكشف عن طابع العلمانية واضحاً في ثناياها فهي لا تعترف بالله تبارك وتعالى صراحة خالق هذا الكون ودوره في تحريك هذا الكون وحفظه ، وعطائه للإنسان في مجال الكشف والمعرفة بحيث أصبح قادراً على استغلال هذه المقدرات وتحريكها .

هذه النزعة العلمانية التى خلقها نظام التعليم الحديث لها خطرها العميق فى تشكيل عقليات ووجدان الشباب المسلم وعجزه عن فهم أبعاد قدرة الله تبارك وتعالى وعالم الغيب وفهم مهمة الإنسان فى هذا الكون من خلال المسئولية الفردية والإلتزام الأخلاقى ومن هنا يتحتم تطهير المفاهيم الإسلامية مـــن المحتوى غير الإسلامى فى هذه العلوم .

• • •

وإذا حاولنا أن نتعرف إلى رسالة الإنسان من خلال الفلسفة المادية نجدها تخضع الإنسان إما إلى الجبرية التى يسمونها مسئولية المجتمع أو المادية التاريخية .

أما القرآن فإنه يقف إلى جانب الإنسان فى مواجهة العالم - على حد تعبير الدكتور عماد الدين خليل ، ذلك أن القرآن يتيح له منذ البدء مركزاً ممتازاً للدور البشرى على الأرض ، فهو من جهة خليفة الله عـــلى الأرض والذى قدر له أن يصنع أحداثاً تاريخية بإرادته واختياره ، سلباً وإيجاباً (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا) (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

كما أن كتلة السماوات والأرض قد سخرت لأداء مهمته هذه ، ومن

ثم تجيء إرادته الحرة في صياغة الأحداث عن العقل والإرادة ،مع تأثره لطبيعة الحال بنواميس الحياة وعلاقاتها المادية ولكن الكلمة الأخيرة في الصياغة تجيء دائماً على يد الإنسان .

كما يكرم القرآن الإنسان تكريماً واضحاً (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا .

وهكذا يتضح كيف يضع الإسلام الإنسان في المكان الكريم بينما تضعه الفلسفات المادية في موضع الحيوانية والجبرية والاحتقار

. . .

إن مفهومنا الإسلامي الأساسي يختلف تماماً عن مفهوم العلوم الاجتماعية فنحن نؤمن بأن الله تبارك وتعالى خلق الكائنات لتعرفه وتسبح بحمده والغاية التي اختارها الله لها هي عمارة الأرض فهي في جملة ١) معرفة الله والإذعان له وعمارة الأرض (٢ ومعرفة عالم الغيب والإيمان به (٣) ومعرفة عالم الشهادة بمعرفة فطرة النفس البشرية وقدراتها ومعرفة الأرض وطبيعتها ووسائل استعمارها .

وإن مصدر المعرفة الأولى والأكبر هو العلم الإلهي الذي وصلنا عن طريق أنبياء الله تعالى وكتبه ، فقد بعث الله تبارك وتعالى الرسل

بالمعارف التى تثرى حياة الانسان وتضىء له الطريق وترده عن المفاسد والمهالك، ومن خلال هذه المعرفة قدم المسلمون المنهج العلمى التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الاسلامية والذى انتقل بعد ذلك إلى أوروبا حتى اعترف بيكون بأن المعرفة هى التى قدمها العرب لعلومهم فكان المنهج التجريبى هو مصدر الحضارة الغربية، ويجىء دور الغرب فى الاضافة أما الأساس فقد وضعه الاسلام (١) إيمان بمفهوم التوحيد الخالص (٢) أخلاقية العلم والحضارة.

وهذا كله يختلف عن نظرية المعرفة الغربية التى ترى أن الانسان قادراً بدون أى مساعدة خارجية إلى إدراك حقائق الأمور، فالمعرفة الاسلامية تقرر أن المصدر الأعلى لها هو الوحى وأن العقل البشرى ليس أداة الادراك أو المعرفة الوحيد دائماً هناك أدوات أخرى منها الحواس.

كذلك فقد وضع الاسلام قاعدة التفاعل بين الفرد والمجتمع وقرر أن مسئولية المسلم فردية نحو نفسه وجماعية نحو مجتمعه، وأن الأصل الاباحة ما لم يرد نص أو تحريم وأن كل عمل المسلم حلال إذا قصد به وجه الله تعالى وأن الروح الاسلامية تعتمد على التكامل والواقعية والاعتدال والانسجام كما قدم القرآن للمسلمين القدوة الحسنة والتطبيق العملى فى شخص رسول الله ﷺ وسنته وسيرته وأعماله وتقريره وأن المجتمع الاسلامى مجتمع أخلاق متحرك متطور

به طاقات عقائدية هائلة تدفعه نحو الأفضل فيرفض الركود والجمود. وأن حركة الفرد المسلم والمجتمع المسلم في ظل التمسك بالإسلام كفيلة بأن تدفع الواقع نحو الرقي والتقدم بصورة صاعدة وممتدة .

ومفهوم التقدم في الإسلام مختلف عن مفهوم الغرب الذي يقوم على وجهة مادية صرفة أما في الإسلام فهو ترابط جامع بين المادي والمعنوي ، بحيث لا يضحي بالمعنوي من أجل المادي . ، ذلك أن بين الإسلام والتقدم رابطة كلية .

. . .

ومن هنا فإن العلوم الاجتماعية والإنسانية الغربية هي من أخطر العلوم على العقيدة الإسلامية ، إذ يقوم أكثرها على افتراضات ، ومسلمات وهي ترمي في الأساس إلى أهداف واضحة أهمها التشكيك في الأديان وإلغاء الأخلاق واعتبارها مجرد ظواهر نفسية واجتماعية وقد أشار (جون ستوارت مل) إلى البضاعة الفاسدة التي باعتها أوروبا للمسلمين فقال إنه يأخذ على النظريات الأوروبية في الإنسان ضيق أفقها الذي أفضى بها إلى فهم جزء من الحقيقة على أنها الحقيقة كلها .

فقد كانت مصيبة فيما أثبتت ، مخطئة فيما أنكرت ، يريد بذلك أنها حين اعترفت بالجانب المادي أو الاقتصادي أو الاجتماعي في حياة

الإنسان كانت على حق ولكن إنكار الجوانب الأخرى لحساب جانب واحد كان خطأ . إن جانباً واحداً من جوانب الحياة الإنسانية ينتزع من سياقه الصحيح ويبالغ فى أمره مبالغة تتجاوز كل الحدود المعقولة فهم يتصورون الجزء خطأ على أنه الكل . وهكذا نرى أن الخلل الأساسى فى الموقف الأوربى خلل ثقافى بل فى قلب الثقافة وجوهرها ألا وهو النظرة إلى الإنسان » .

• • •

ولعل أخطر ما كشف عنه فى السنوات الأخيرة وكان بعيد الأثر فى تقييم ما يسمى بعلم الاجتماع ما قاله كثير من العلماء من أن هذا العلم يستخدم فى كلا المعسكرين فى خدمة هدفه وأنه مرتبط بأدوات السياسة والقوة العسكرية وأنه يرمى إلى مقاومة الحركات التحريرية فى العالم الثالث (عالم الإسلام) وأنه يستخدم لدعم النظام الرأسمالى فى الغرب وفى السوفيت يعمل على كشف مآسى وتناقضات المجتمع الرأسمالى . وأنه بذلك يمكن أن يكون علما إنسانياً ويمكن أن يكون ضد الإنسان ويمكن أن يسهم فى حل المشكلات أو يكرس التخلف ويخدم الأقلية .

وأكد الباحثون المحايدون ، أن علم الاجتماع الغربى لم يكن علماً قائماً بعمله على النحو الذى يفرضه العلم ولكنه كان يعمل دائما

فى خدمة النظام الغربى وما يتصل به من تثبيت سلطانه ونفوذه فى عالم المستعمرات أو البلاد الخاضعة له اقتصاديا ومعنى هـــذا أن علم الاجتماع هو فى داخل المجتمعات سواء الغربية أو الإشتراكية هو علم تبرير الواقع ، إلتزاما بتوجيهات القوة الحاكمة وأيدلوجيتها العامة ».

• • •

وبالرغم من وضوح ذلك وتكشفه فما يزال كثير من كتابنا ومكرينا مخدوعون إزاء مايظنونه من أصالة المنهج العلمى الغربى وقدرته وعطائه وهى مسلمة خاطئة لم يقم الدليل على صحتها ، بل إن الأحداث والمتغيرات العلمية ما تزال تكشف عن فسادها وعن عجز ما يسمى المنهج العلمى الغربى عن العطاء وعما يحوطه من ثغرات فى مجالات كثيرة خاصة فى مجال العلوم الإنسانية التى اعتمدت على التجريب فتجاهله الفارق البعيد بين العلوم المتصلة بالمادة وما يتصل بالنفس الإنسانية ومن ثم تهاوت مختلف النظريات التى ظهرت فى العقود الأخيرة فى مجال الاجتماعية والنفس والتربية والأخلاق .

• • •

أعتقد أننا فى حاجة إلى إعادة النظر فى أمور كثيرة لم تعد قادرة على العطاء .

أولا : ضرورة الفصل بين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية .

ثانياً : ضرورة إيجاد منهج مختلف عن المنهج المادى فى دراسة الانسان .

ثالثاً : إعادة النظر فى مذهب التفسير المادى للتاريخ ونظرية دارون ومفهوم فرويد للجنس ومفاهيم دوركايم ونسبية الأخلاق .

رابعاً : تصحيح دوائر المعارف العالمية وخاصة فى مواد :

الله ـ الانسان ـ الرسول ـ القرآن ـ الاسلام ، الغيب ، النبوة .

خامساً وضع مقدمات للعلوم عامة تقدم دور المسلمين .

سادساً . ضرورة تقديم جميع الكتب المترجمة من الفكر الغربى إلى اللغة العربية بمقدمات تكشف وجهتها وغايتها وأهدافها ؟

رقم الايداع ١٩٨٩/٢٣٨٢

مطبعة دار البيان ـــ عابدين